الفصل الثاني

الأرض

رَكَّزْنا في الفصل السابق على الوضع الاسْتِثْنائي لباكستان بسبب أساسها العقدي ـ الإيديولوجي ـ الذي قامت عليه. إلا أنها استثنائية أيضاً ـ بل قد تكون فريدة ـ في ناحية أخرى ذكرناها بصورة عابرة ولم نتفَحَّصْها وهي جغرافيّتها، فباكستان تتكوّن من إقليمين منفصلين سُمِّيَا بالجناحين بينهما ألف ميل[1]. وأَثارَ هذا الانفصال الجغرافي، أكثر من أي عامل آخر، شكوكاً عدّة عند قيام باكستان في إمكانية بقائها...؛ ولايزال يثير الهواجس حتّى الآن لأن هناك أمراً آخر: فبالإضافة للبعد الجغرافي، هناك اختلاف في خواصّ الجناحين في أمور هامّة مثل المساحة وكثافة السكان والمناخ وطبيعة الأرض وإنتاجها الزراعي، وقِسْم كبير من تاريخهما، والعوامل المُلِحّة التي يتعرّضان لها، ولغة سكانهما، واللباس والغذاء وإلى حدٍّ ما تركيبهما البدني والمِزاجيّ أيضاً.

فالجناح الغربي واسع الامتداد على الخريطة تساوي مساحته مجموع مساحة فرنسا وبريطانيا معاً فهي ٣١٠,٠٠٠ ميل مربّعا[2]. أمّا الجناح الشرقي فيكمن ألاّ يَلْحَظهُ الإنسان على الخارطة ومساحته هي سُدْس مساحة الجناح الغربي ٥٥,٠٠٠ ميلاً مُربّعاً ولكنه، بالمقابل، يَضُمُّ غالبية سكان باكستان (٥٠,٨٤٠,٠٠٠) نسمة بينما سكّان الجناح الغربي (٤٢,٨٨٠,٠٠٠)؛ أمّا الكثافة السكانية فهي ٩٢٢ نسمة بالميل المربع في الجناح الشرقي و١٣٨ نسمة بالميل المربع في الجناح الغربي؛ وهذا تباين مذهل... قد يُفَسِّره اختلاف طبيعة الأرض ونِسْبَةُ الأمطار.

لقد قيلَ بحَقٍّ إنه بينما يتنقَّل الريفي قي غرب باكستان على الجمال فإن واسطة النقل لدى الريفيّ في شرق باكستان هي الزوارق فالإقليم الغربي جاف أما الشرقيّ فهو مُبتَلٌّ مُخضَلّ؛ فباكستان الشرقية هي دِلْتا، ورُبَّما كانت أكبر دِلْتا في العالم، أرض مسطحة تماماً

---

(١) هذا تعميمٌ تقريبيّ فالمسافة بين أقرب نقطتين بين الجناحين هي ٧٢٥ ميلاً والمسافة بين (كراتشي) و(داكا) هي ١١٧٥ ميلاً.

(٢) هذا الرقم لا يضم مساحة الجزء المُحَرَّر من كشمير التي هي في الواقع جزء من باكستان ومساحته (٣١,٠٠٠) ميل مربّع، إلاّ أنّه يضُمُّ المنطقة الفدرالية لكراتشي ومساحتها (٨٠٠٠) ميل مربع.

يتخلَّلُها نَهْران بتفرُّعاتهما: نَهر الغَنْجيز Ganges، ونَهْر بْراهْمَابُوتُرَا Brahmaputra يلتَقِيان لِيَجِدا لتَعَرُّجاتهما أخيراً طريقاً إلى البحر. فهي ـ أي باكستان الشرقية ـ إذنْ أرضٌ مُخْتَرَقَةٌ بالعديد من المجاري والقنوات النَهْرية الصغيرة والكبيرة، المستوية والملتوية، بالإضافة للعديد من البحيرات والمستَنْقعات.

وخلال فصل الأمطار ـ ما بين شهر أيار وشهر تشرين الأول ـ أكتوبر ـ تكون أجزاء كبيرة مَنها مغمورة بالفيضانات، بخاصّة مناطق المَصَبّات؛ ولا يقطع هذه المساحات المغمورة بالماء إلا مركب هنا ومركب هناك، أو أغْصان أشجار أغلبها غارق في الماء، أو مساكن وأكواخ معزولة قائمة على ارتفاع خمسة عشر قدماً تقريباً من الحقول المُغطّاة، فوق تَلّة مُصْطَنَعَةٍ من الطين.

وما أن يحلّ الخريف حتى تغيب أحزمة السحب الثقيلة المنخفضة لموسم الأمطار وتنقشع السماء وتشع جنانها على الأرض وتتحوّل ساحات المياه القاتمة اللون إلى أرضٍ مُشمِسَةٍ مكسوّةٍ بالخضار الحيّ لِنَبْتَةِ الأرز النامية في منخفضات بحيرات صغيرة متماوجة السَّطْحِ بالنسيم الرقيق، محدودةٍ بحواجز طينيّة قليلة الارتفاع. هناك محصولان أو ثلاثة من الأرز في العام الواحد في تربة غنيّة لا يحتاج الفلاح فيها إلا قليلَ جَهد لرعايتها، فالطمي يُغنيها بصورةٍ منتظمة خلال الفيضانات السنوية.

وإذا لم يكن الخَضار من حقول الأرز فهو على الأغلب نبات القُنَّب الخشن المظهر، وتتحلَّقُ حول المساكن المصنوعة من القشّ وسَعَف النخل مجموعات الأشجار البهيجة المَنْظَرِ: أشجار المانْجا ذات الأوراق العميقةِ الخُضرة وأشجار التين البنْغالي والتَّمْرِ الهندي وأَجَمات شجر الخيزران وأشجار النخيل والتمر؛ وفي الأراضي المُنْخَفِضَةِ المجاورة برَكُ المياه التي يتمرّغُ فيها الجواميسُ السود، وفوق مستوى الأفق تقْطَعُ السماء الزرقاء أحياناً غيمة بيضاء كسُولة أو طيران الطيور المائية ذات السيقان الطويلة.

لا مراء في أن المناظر في ذلك الشتاء المُضِيءُ أو في أشهر الربيع جذّابة لا يُقلِّلُ من جاذبيّتها إلا تعاقُبُها الرَّتيب بِشَكْلٍ دائم حيث يبدو كأنْ لا نهاية لها. ولا يجد الإنسان تلالاً وهضاباً إلا في أقصى الجنوب الشرقي على حدود بورما.. فهناك في الواقع هضاب حقيقية مُحَجّبةٌ رَغْمَ قَسْوَتِها مَكْسُوَّةٌ بالحِراجِ تفْصلها الوديان السحيقة وهي ملآى بالعَلَق في (تْشيتا كُونْغْ) و(أراكانْ) حيث قامت حملات قوات الحلفاء ما بين عام ١٩٤٣ و١٩٤٥ ضد

اليابانيين. ويمكن حقّا مشاهدة تِلْك التلال من حدود جنائن الشايْ في (سِلْحِتْ)، إلا أن أغلبَها يقع ما وراء حدود الهنْد، وفي (آسّام) و(تْرِيبورا). وفي منطقتين اثنتين فقط يمكن للمشاهد أنْ يرى تَحَوُّلاً في التضاريس عن السهول الرتيبة المنظر: منطقة (ماذْهُبُور) الواقعة بين رافد (مِغْنا) والقناة الرئيسة لِنَهْر (بْراهمابوتْرا)، وفي منطقة (بارينْدْ) في مواجهة حدود الهند بين نَهْرَيْ (الغَانْجِيزْ) و(بْراهمابوتْرا)، فالأرض هناك مرتفعة قليلاً.. وأقَلُّ خُصُوبةً. ويشاهد الإنسان هناك أرضاً مَكْسُوَّةً بالأعشاب البريّة، وبعض الحراج البِكْر؛ وفي مواجهة البحْر في الجنوب على امتداد مئة وخمسين ميلاً... وَبِعُمْقِ سِتِّينَ ميلاً، ورغم أن هذه سهول أيضاً إلا أنّها على مستويات مختلفة. وتنْتهي السهول وَنترك المنطقة الزراعية، التي ربّما تَضُمّ أعلى كثافة سكانيّة في العالم، لنَدْخُلَ مجاهل الغابات الخالية، تقريباً، من السكّان. وهذا ما يجعل الكثافة ٩٢٢ نسمة في الميل المُربّع أكثر بروزاً في باكستان الشرقيّة. ثم نَنْتقلُ إلى (سانْدِرْبانْ) حيث الدِلْتا المُتشعّبة لِقِسمين على مصب نَهرَيْ (الغَنْجِيزْ) و(بْراهمابُوتْرا)؛ مساحات لا يَحدُّها بصر، من الأقنية والخِلْجان ذات الماء العَكِرِ المالح، تتجمّعُ على أطرافها المبتلّة الأشجار الاستوائية Mangroves ذات الجذور الطويلة كسَاقَيْ طير اللقلاق تُزيّنُها وتجمعها النباتات المُعَرِّشةُ عليها، أو سَعفُ النخل وشجر السَانْدري المُطِلَّةِ كالبروج ومنها اسْتَعارت المنطقة اسمها (سانْدِرْبان). وبمتابعة ضفاف هذه الأقنية المتقاطعة يصل الإنسان إلى ما يشبه الأروقة من أوراق الشجر اليابسة. إنّها صورة روائية للغابات الإستوائية في أوضح أشكالها. مناظر يقطع أغنياء السياح من نيويورك أو (سَاوْثْمبْتُون) عدّة أسابيع على السفن النهرية الفاخرة في الأمازون ليُمْكِنَهم.. مشاهدة شبيه لها، ويستطيع هنا أي فرد الوصول إليها بمبلغ زهيد في أقل من يومٍ من السفر من (داكا) أو من (كلكُتّا) بالقوارب ذات العجلات المجذافية. إلا أن (كلكوتا) وكانت ثاني مدينةٍ في عهد الإمبراطورية البريطانية ليست في باكستان. إنّها عاصمة جزءٍ من البنْغال الذي ضُمَّ للهند عام ١٩٤٧، أمّا (داكا) فهي الجزء الذي أصبح باكستان ـ الشرقية ـ مَضافاً إليها ناحية (سِلْحِتْ) من (آسّام). وباكستان الشرقية على صِغَرِ حجمها بالنسبة لباقي باكستان، هي أوسع مساحة من دولة غرب البنغال ا لهندية إذْ مساحة الأولى (أي شرق باكستان) (٥٥٠٠٠ ميل مُربّع) بينما مساحة غرب البنغال (٣٤٠٠٠) فقط وباكستان الشرقية أكثر إنتاجاً زراعياً وأكثر صِحِيّةً من غرب البنغال حيث الملاريا في الأخيرة أكثر انتشاراً.

وهذان الامتيازان في باكستان الشرقية نَتَجا عن تغييرات ضخمة، غير عاديّة، في مجاري الأنهار عبر التاريخ. فحتّى القرن السابع عشر كان المصبّ الرئيس لِنَهر (الغنجيز) في الناحية التي أصبحت قناة ثانويّة ـ رغم شُهرتِها العالمية ـ ذات ماءٍ راكدة، من المجازفة استعمالها للنقل النهري لأنّها معرّضة للاختناق بسبب الطمي (هُوْغْلِي Hoghly)؛ ثم، ولأسباب غير واضحةٍ اختلف حولها الجغرافيون، بدأ النهر بالتّحول نحو الجنوب الشرقي عبر الدِلْتا على مَقرُبةٍ من (نَوّاب غَنْج) مندفعاً، حتّى الآن، عبر قناة (بادْمَا) نحو أقصى الطرف الجنوبي لِنَهر (بْراهْمابُوترا)؛ ويظهر بمجراه الهائل في خليج البنْغال حوالي (١٧٥ ميلاً) أبْعَدَ من مصبه التاريخي بجوار (شانْدْبُوْر). كذلك تحول نهر (بْرَهْمابوترا) نفسه في منطقة أبعد، قبل وصوله إلى مَصَبِّه في الناحية المعاكسة ـ أي غرباً .؛ فحتّى عام ١٧٨٠ م كان مجراه الرئيسي يمرُّ في (مَايْمِنْسِنْغْ) ليدخل في رافده (المِغْنى) قرب (بْهِيرَابْ بازارْ) بَدَلَ جريانه في قناة غير مُهِمّة معروفة باسم (جامونا) على بعد سبعين ميلاً إلى الغرب ليدخل في نهر (الغِنْجِينْزْ) مباشرة كما هو الحال الآن. وحَوّلَ رافدان آخران مجراهما في نفس الفترة تقريباً، بصورة مفاجئةٍ فاجعة: (الدَامُودَارْ) و(التِسْتَا)... نَهْران شهيران يُناسبُهُما، تِبْعاً لِمَا خَرَّبا عَبْرَ العصور، استعارة اسْمٍ من الصين: «أنهار الأسف» . ففي عام ١٧٧٠، (الدامودَارْ) الذي يَتَلَقّى مياة الأمطار من تلال (حَضَرَ باغ رَنْشي) في (بيهار) لِيَنْقُلها إلى (هوغلي) الأكثر انخفاضاً، يُغيّر فجأةً مَصَبّه لنقطةٍ جنوبية تبْعُدُ حوالي ثمانين ميلاً مما سبّب تزايداً كبيراً في الطمْي في أواسط (هوغْلي). وبعد سبعة عشر عاماً، (التِسْتَا) يترك مَجْراه الأصلي إلى نهْر (الغنجيز) ويفتح مجرىً جديداً لِنَفْسه بطُولِ مئةٍ وخمْسين ميلاً ليتّصل بنهر (براهمابوترا) بَعْدَ (رانْجْبُورْ)؛ ونهْر لِيْتَا؛ بالمناسبة، يَبْرُزُ فجأةً عَبْر مَمَرَّات صعبةٍ في سهول البنغال آتياً من مَنْبَعٍ هائلٍ في جِبال الهِمَالايا حول قِمّة (إفرِسْتْ).

كل هذه الأمور، مجتمعة، أدّتْ إلى الإضرار بما يُسمونه اليوم غَرْب البنْغال مقارناً بشرقِ باكستان،... غرْبُ البنغال هي أرض الأنْهار الميّتة أو التي في طريقها لِلموت، فالأقْنية التي كان يجري فيه النقْل النهري ملآى بالحطامِ والأنقاض التي ترسَّبَتْ فيها بسببِ بطْءِ جريان الماء وهي تحتاج بصورة مستمرة لعملياتِ تنْظيف مُكلفة؛ والحقول التي لم تتعرَّض لمياة الفياضانات الصيفية المنْتظمة لا تتنشَّطُ بطبقات حوْليّةٍ من الطمْي الجديد الذي هو سَمادُها في العادة؛ والكثير من المستنقعات يتوالد فيها البَعُوض ويكثُرُ فيها مَرَضُ

الملاريا ـ البرداء ـ تِبْعاً لذلك. وإذا ما بَنَتْ الهنْدُ قريباً سَدًّا كبيراً جَديداً لِنَهْرِ (الغنجيز) فذلك ولا شكّ لِتَحْسينِ الحال في شَرْقِ البنغال بتَحْسين مَجْرى النهر في (الهوغْلي) وسيُسبِّبُ ذلك ضرراً لباكستان الشرقية ويزيد من سويّة التوتر الموجود في سياستيْهما المتعارضتين. والسَدُّ المُقْتَرَحُ في (مَزَّاكَهْ) حوالي عشرة أميال فقط من حدودِ باكستان سيُحوّل حوالي (٣٥٠٠٠) كُوسِكْ من الماء، وهي كميّة كبيرة، من قناة (بادْمَا) إلى... (الهُوغْلي) في الهند.

رغم أنّ وَصْفنا السابق لباكستان الشرقية يُوحي بأنّها أحسن من غرب البنغال، إلاّ أن المناخ فيها أشدّ فبينما المعدّل السنَوي للأمطار في غرب البنغال حوالي (٥٥ بوصة)، والتقديرات أنّها كميّة كافية إلا أن الأمطار أغْزَرَ في باكستان الشرقية ما عَدا منطقة (راجْ شَاهْ)، ففي مناطق (تْشيتاكَونْغْ) والتلال المجاورة، وحَول مصبّ نهر (المَغْنَ) وقُرْبَ (رانْجْبُور) في أقصى الشمال، يمكن أن يصل المعدّل السنوي للأمطار إلى (١٥٠. ٢٠٠ بوصة)؛ وفوق منطقة (سِلْحِتْ)، على الناحية المقابلة ـ داخل الهنْد ـ تلال (خاسي) في (آسّام) وهي أغزرُ مناطق العالم كُلّها أمْطاراً، حول القرية الشهيرة (شيرّابونْجي) يصل المعدل السنوي للأمطار إلى (٤٢٥ بوصة)؛ وفي عام ١٨٦١م فاق المعدل الرقم (٩٠٠ بوصة) ـ أي حوالي (٧٥ قدماً). يُضاف إلى ذلك أن الأمطار في باكستان الشرقيّة لا تَهْطل بهدوء وانْتِظام فهي تأتي عِبْر زوابع مُتناهية الشدَّة في الأسابيع التي تسبق أو تلحق موسم الأمطار المُحدّد؛ ويحدث ذلك أيضاً في غرب البَنْغالْ ولكن بكميّة وشِدّةٍ أقلّ، فزوابع نيسان وأيّار المعروفة باسْم ـ زوابع الشمال الغربي ـ هي اضطرابات الإعصار الحلزوني المحليّة الخاصة بحَوْضِ البنغال، تثير فضول أخصائي الأرصاد الجويّة، ولكن رغم بروقها ورعودها الضخمة وجدران المياه التي تتساقط فجأة مصحوبةً بالبَرَدِ وعَصْفِ الرياح المخيف، لا تُسبّبُ أضراراً كبيرةً إلاّ إذا صاحَبَها ارْتفاع في مَدّ البحر عند مصبِّ الأنهار، كما حدث في أيار ١٩٤١م حول (باريسال) و(نَوَاكالي) فغرِق سبعُمئةٍ وخمسون شخصاً. إلا أن زوابع الخريف التي تظهر في خليج البنغال عند انْقطاع الأمطار الموسمية هي ظواهر ذات تأثيرات واسعة؛ فهي أعاصير استوائيّة شبيهة بتلك التي تحدثُ في بحر الصين والبحر الكاريبي؛ ولعلّ أسوأ هذه الأعاصير كان عام ١٩٦٠ عندما تتابع إعصاران هائلان ـ وهواء غير عادي ـ وضَرَبا شواطئ باكستان الشرقية خلال شَهْرٍ واحد وقُدِّر مجموع الوفيات

حوالي (١٤٠٠٠) أربعة عشر ألْفاً؛ كانت ريح الإعصار شديدة لدرجة أطاحت بناقلةٍ حُمولَتُها عشرة آلاف طنٍ ودفَعَتْها الأمواج إلى مسافة عشرة أميال داخل اليابسة حيث بقيت شهوراً محصورة في حقول الأرز كشاهد على شدّة الإعصار. ولقد كانت الأضرار ضخمة فوق مساحات واسعةٍ أدّت لِشَلَلٍ مُوقّت في الاقتصاد الباكستاني؛ والسنوات التي شهدت الأعاصير خلال قرْنٍ من الزمان كانت سنة ١٨٦٤ وسنة ١٨٧٦ وسنة ١٩١٩ وسنة ١٩٤٢م.

ومن الواضح أن غزارة الأمطار في باكستان الشرقيّة وتَعَرُّضَها للفيضانات والزوابع، ونظراً لحيويّة ونشاط أنهارها ـ على عكس ما هو الحال في غربِ البنْغال ـ تحتاج باسْتمرار لأراضٍ جديدة بسبب تحوّل مجاريها، وهذا يعني أن التنقّل فيها ليس أمْراً سهلاً. والواقع أن الطريقة المجدية الوحيدة للسفر ليست العربات والسيارات بَلْ المراكب والطائرات؛ ففي منطقة أرضها من الطين الجاف أوْ شِبْه الجافّ لا يصْلُح بناء طُرُقٍ إسْفَلْتِيّةٍ وخطوط حديدية للقطارات، وأقرب منطقة صخرية هيَ على بُعْد أربعمئة ٤٠٠ ـ ميل شمالاً من الشاطئ، وعمليّة النقل مُكْلِفة. وعندما تُفتَحُ الطرقات أو تُقام الخطوط الحديدية للقطارات يحتاج العاملون إلى تحويل المسيرة لاتّقاء أقنية المياه التي لا يمكن أن تجد لها جسوراً؛ والمناطق المعرّضة للفيضانات، وهذا التحويل الإجْباريّ يجعل الخطّ مُتعرّجاً والسير عليه بطيئاً. وحتّى قبل عام ١٩٤٧ كانت أكثر السَفريات في البنغال ما بين (كلكوتا) و(داكا) مُتْعبة؛ إذْ لم يكن هناك خطّ مباشر للسيارات وأقصر مسافةٍ كان طولها ٢٢٥ ميلاً في القطار والسفر النَهْري يحتاج لثلاث عشرة ساعة؛ وكان الانتقال من القطار إلى القوارب البُخارية مُزعجاً، بينما كانت المسافة في الجوّ ١٤٥ ميلاً بين المدينتين تُقطع في خمسين دقيقة. وبعد الانقسام الجغرافي عام ١٩٤٧ زاد الوضْعُ سوءاً بسبب إقامة الحدود، والمعاملات الرسمية؛ ومن الناحية الهندسيّة أصبح نظام المواصلات في البنغال، بعد تقسيمها، مجزّأً وغير منطقي تماماً، وبسبب كل هذا، أكثر مناطق باكستان الشرقية هيَ في الواقع بعيدة لا يمكن الوصول إليها، ومنعزلة عن العالم إلى درجة لا يمكن تصوّرها، بخاصة بالنظرِ لحجْمها الصغير على الخارطة الجغرافية. وهنا نصل إلى تناقُضٍ آخر، فَرَغْم الكثافة السكانية العالية باكستان الشرقية ريفيّة في غالبيّتها... أكثر بكثير من باكستان الغربيّة، فالمدن فيها قليلة وصغيرة ولا أهمية كبيرة لها إلاّ كمركز للأسواق، فالمهم الحقول الخَصْبة ومواظبة زراعتها من قِبَلِ الفلاحين الذين يعيشون في العديد من القُرى الصغيرة

والمساكن المبَعْثرة فوق مساحات واسعة. والواقع أن مدينة (تْشِيتاكونْغْ) تكتسبُ أهميّةً متزايدة كميناء بحري. ومَرْفَأ (شُلْما) والتي إذا حَسَبْنا مَعَها ضاحيتها الصناعية في (تْرِيانْغاني) على بعد عشرة أمْيال، يمكن أن يكون عدد السكان ٧٢٠,٠٠٠ ألفاً أي ثُلْث سكان (كَراتْشِي) تقريباً أو خُمْسُ سكان (كلكُوتَا) التي تقع على مسافة أَرْبَعين ميلاً فقط من الحدود مع الهند.

وبينما باكستان الشرقيّة في المنطقة الاستوائية حيث الطقس الحارّ الرطب أو (المُفتِّر) الأوْقْيانوسيّ حيث التغيّرات الحراريّة فيه قليلة، ليس في باكستان الغربية أيّة بُقْعَةٍ في المنطقة الإستوائية إنها بلاد جافّة وصحراوية شديدة في بعض أجزائها.. مناخُها قاريّ ويعني أنّ بها تغيّرات مفاجئةٍ كبيرة في درجات الحرارة باختلاف الفصول بل باختلاف ساعات اليوم؛ كذلك التغيّرات بالنسْبة لارْتفاع المنطقة عن سطح البحر بالمقارنة بباكستان الشرقية التي يختلف مناخها عنها اختلافاً كبيراً. ويُفاجأ الأورُبيّون والأمريكان عندما يُشارُ إلى هذه الحقيقة الجغرافية لِباكستان الغربيّة: فمنطقة (شِتْرالْ) في أقصى الشمال لباكستان الغربية هي في بُعْدِ (أثينا) أو (سان فرنْسيسكو) عن خطّ الاستواء. وبسبب طبيعة التّضاريس هناك ـ وهي منطقة جبلية ـ المناخ والأرض والنباتات وملامحُ السُكّان وألْبِسَتُهم التي يحتاجونها، تُماثِلُ سكان المناطق الشمالية في البلاد المعتدلة مثلاً (سيبّرا نيفادا) في إسبانيا أو (كولورادو) في الولايات المتحدة الأميركيّة؛ بَلْ هناك جزءٌ من (شِتْرال) ـ على حدود أفغانسان ـ يمكن أن يوصف مناخه بأنه أقلّ من مُعتدل ـ أي بارد ـ لأنّ فيه جِبالاً شاهِقة فقِمّة (تيرِشْ مِيرْ) ترتفع إلى (٢٥٠٠٠) ألف قدم في سلسلة جبال (الهندوكوش).

والتَعْمِيم ليس مُمْكِناً في وصف الجناح الغربي لباكستان كما فَعَلْنا في وَصْف الجناح الشرقي، فهو واسع ومُتنوّع ويجب عَرْضه قَطاعاً قِطاعاً. ففي باكستان الغربية عدة قِمم جبال بالإضافة إلى سلسلة جبال الهندوكوش هناك (كاراكورام) وجزء من جبال (هملايا) و(صافِذْكُوهْ)؛ وهناك صحارَى شديدة الحرارة، مثل أفريقيا، وشبه جزيرة العرب، وهناك سهول خضراء مرويّة واسعة خَصْبة، ومرتفعات صخريّة. ومناخ باكستان الغربية في بعض فصول السنة جميلٌ صِحّي ومُنشِّط كأي منطقة مماثلةٍ أُخرى في العالم. فالفَجْرُ بارد جليديّ وبعد الظهر سماء صافية وشمس مُشِعّة ونَسائِم ناعمة وليلٌ مُرَصّعٌ بالنجوم. ولكن في أوقاتٍ أُخرى من السنة يمكن أنْ يكون البَرْدُ قاتلاً أو الحرارةُ مرتفعةً جدًّا مع جفافٍ وغبار؛ وفي

الشمال بالذات وفي الأسابيع الأخيرة من الصيف عندما يندفعُ الهواء الساخن الرَطب نحو السهول، مثيراً للأعصاب بحرارتة اللزجة... يكون المناخ كمناخ البنغالْ في أسوأ حالاتِه.

وفي منطقة (جلْجِتْ) إلى الشرق من (شِتْرالْ) وهي ـ اسميًّا ـ جزءٌ من كشمير المتنازع عليها تديرها باكستان منذ عام ١٩٤٧، هناك جاذبيّة خاصة لِمُحِبّي الثلوج والقِمم الجليديّة ومُتسلِّقي الجبال ومُحِبّي المغامرات منَ السُيّاح لأن فيها سلسلة جبال (كراكورامْ) حيث تتكاثف القمم العالية بشكلٍ لا مثيل له في العالم: ثلاث وثلاثون قِمّةً أعلى من أربعٍ وعشرين ألف قدم (٢٤٠٠٠ قدم) مجتمعة في منطقة مساحتها كمساحة جبال الأَلْب السويسرية، قمم كثيرة ليس لها اسم ومناظرها خلاّبة ومن أشهرها قِمّة (ك ٢ ـ K 2) وعُلُوها ثمانية وعشرون ألفاً ومئتان وخمسون قدماً (٢٨٢٥٠) وهي ثاني قمّة في العالم ـ بعد إفرِسْتْ ـ وهناك (راكابوش) وأربع قِمم لجبل (كَشِرْبروم) و(دَسْتاغِيلْ) و(ماشِرْبُرُوْمْ) و(كونْجُوتْ سارْ)؛ كذلك في المنطقة جَبلان (رومانْتيكيّان) جذّابان صغيران ومنعزلان هما (هُونْزَا) و(نَاجَارْ) ليسا بَعيدَين عن حدود الصّين تحدَّث عنهما كُتّابٌ كثيرون أُخِذوا بجمالهما. والوصول إلى منطقة (جِلْجِتْ) من سهول باكستان الغربيّة بالسيارة ليست عمليًّا إلا في فترة شهرين ونصف كل عام عندما تنحَسِرُ الثلوج عن طريق سيّارة الجيب في مَمَرٍّ (بابُوسَارْ) وللوصول إلى نقطة مراقبي الأمم المتحدة على حدود كَشْمير المتنازع عليهما ـ وهم هناك منذ عام ١٩٤٩ ـ يجب استعمال الطائرة، والخط الجوّي إليها هو مِنْ أجمل الممرّات الجويّة في العالم باستثناء جبال (الأنديس). وبين تعاريج نهر (الإندوس) ترتفع القمم البيضاء المُدبّبة وأبرزها (نانْجابَرْباتْ) الذي يبدو ككُتْلةٍ هائلةٍ بيضاء على ارتفاع سَبْعة وعشرين ألف قدم (٢٧٠٠٠).

والجبل المخيف الذي قتل عدداً كبيراً من شُجْعانِ مُتَسلِّقي الجبال يفوق عدد من قضوا على قِمَم آسيويةٍ أُخرى[1]، ليس (كراكورامْ) بل قمّة (هملاياني) في أقصى الغَرْب لهذه السلسلةَ. والسلْسِلتان متميّزتان جيولوجيًّا، وليس هناك في شرق سلسلة هِمَلايا أيّة قمّة تُقارب (نانْجابَرْبات) في ارتفاعها على امتداد أربعمئة وخمسين ميلاً حتّى يصل المرء قِمّة (نانْدَا ديفي) في ولاية (أُوتارْبْرادِيشْ) الهنْدية؛ لذلك تقف هذه القمّة شامخةً لِوَحْدِها تعْلو كُلّ ما حولها وهذا ما يزيد من جَمال منظرها الأخّاذ... رغم قُدرَتها القاتلة على إثارة الزوابع المفاجئة.

---

(١) ٣٧ متسلّقاً قتلوا فيه حتى عام ١٩٦٠م.

وفي الجنوب والجنوب الشرقي والغربي منها ـ ونحن لانزال على أرض كشمير ـ تنْحَدِرُ التضاريس مُشكِّلةً ما يُسَمّى «بالهضاب» علماً بأن ارتفاع كثيرٍ منها هو أعْلى من قِمّة (مون بَلانْ) في جبال الألْبْ، أقول تنحَدِرُ نَحْو (إسْتُرو غوريسْ) و(مُظَفّر آباد) و(بْرامُولا) و(يُوْنْشْ) و(مِرْبُور) و(بَهِذْبار) في الجنوب الشرقي ـ المنطقة التي احترب فيها ومن أجلها الهنود والباكستانيون... في الفترة ما بين ١٩٤٧ ـ ١٩٤٩ . كذلك تنْحَدِرُ نحو منطقة الحَضَرَة ويلفظها الناس حَظارَا ـ في الجنوب وهي جزء من الإقليم الشمالي الغربي لباكستان، ونَحْو مناطق قبليّة للباثان (سَواط) و(دِيرْ) في الجنوب الغربي؛ وكلّ هذه المناطق متشابهةٌ في مناظرها. وكما هي السهول في البنغال، كذلك سفوح جبال هِمَلايا حيث تتتابَعُ المناظر متشابهة رتيبةً بدون نهاية: وِدْيانٌ ضيّقة تحدُّها سفوح مغطّاة بأشجار مَخْروطيّة الشكل تنتهي بقِمم مكسوّة بالثلج ترتفع في حدّها الأعلى إلى سبعة عشرة ألفَ قدم (١٧٠٠٠) تقريباً. والطُّرُقُ، بطبيعة الحال، تلتفُّ وتتعرّجُ على جوانب الوِديان إذْ لا يصلح قاع الوادي كطريق لأنّه مليء بالصخور والحجارة المتآكلة بِفِعلِ السيول؛ وأكثر هذه الطرق حديثة العهد فُتِحَتْ لأغراضٍ اسْتراتيجيّة بسبب النزاع على كشمير ويُقدّر البعضُ أن هذه أرض مُمِلّة لا خواصّ تميّزُها إلا في نقطتين حيث تتّسع لِتُفسِحَ المجال لمنابع الأنهار الكبيرة التي تتّجهُ نحو السهول: نهر (الإندوس) ورافده الكبير الذي يوازيه في الحجم تقريباً نهر (جهْلُمْ) وكأنهما ذراعان مفتوحان لبقعة من الأرض معروفة بِهضبة (بُتْورْ) محدودة جنوباً وشرقاً بجدران السفوح الصغيرة للهضاب المِلحيّة ذات الجيولوجيّة المركّبة على ارتفاع ثلاثة إلى خمسة آلاف قدم (٣٠٠٠ ـ ٥٠٠٠) قرب (ساكِيْسَارْ). والريُّ على مستوى واسع في تلك المناطق غير عمليّ طبعاً في هذه الأراضي المجزّأة، وسطح المرتفعات على علو ألف وسبعمئة قدم (١٧٠٠) مُشكّلٌ من طبقة رقيقة من التراب مع الكثير من الحصى فوق طبقة خشنة راشحة من الحجارة الترابية تخترقها ممرّات لا تصلح للزراعة، ولكن من المدهش أن هناك محاصيل زراعية عالية الجودة ناتجة من استغلال بعضِ السطوح الترابية المصطنعة والتجوُّفات. والناس الذين يعيشون هناك رجال أشداء طيّبون إلا أن تعدادهم هو أكثر ممّا تستطيع الأرض إنتاجه لمعيشتهم لذلك يتحوّل كثير منهم للجيش. وفي الربيع، بخاصّة عندما تتحوّل البقعُ المتماوجة البُنية القاتمة اللون إلى الخضار الشديد لِسَنابل القمح النامية أو إلى الاصفرار لِنبات الخرْدَل، تبرز هذه المنطقة ذات الجاذبيّة الخاصة بها، وتتناقصُ هذه المناظر تدريجيًّا على أطراف الأفق الأزرق البعيد تحت قبّة السماء اللازوَرْدية. وإلى الشرق

منها نرى ـ عندما تكون الرؤية حسنة ـ الجمال المثير لأوّل سلسلة جبال الهملايا تشعُّ بِثلجها الذي يُغطّيها، والمعروفة باسم (بِيْرْبَنْجالْ) البعيدة عن متناول الباكستانيين. وهي الرمز القائم للحرب الباردة في جنوب آسيا، والخطّ المُتعرِّج لوقف إطلاق النار يقع بين هذا الجبل وباكستان، وجمال تلك الجبال هو في أرض كشمير التي تحتلُّها القوات الهندية. وتتركَّز هضاب (البُتْوِرْ) في (راوَلْبندي) المعسكر الهامّ والمركز التجاريّ الذي تمر عبره الطرق والخطوط الحديدية للقطارات بين (لاهور) و(بيشاور). وهناك طريق شمالي يُؤدّي إلى جبل (مَرّي) ويوصل أيضاً إلى (مُظفَّر آباد). وعلى مقربةٍ، ومنذ عام ١٩٦٠ تقوم العاصمة الفيدرالية ـ الاتحادية ـ الحديثة (إسلام آباد) وهي في طريق إنشائها لتحلّ مَحَلَّ (كراتْشي).

ونستمرُّ في الاتجاه نحو الجنوب الشرقي من (بَتْوِرْ). بين الجدران الصخْرية عبر نهر (جَيْلْهُمْ) إلى (كوجوراتْ) لِنَطَّلِعَ على سهول باكستان الغربيّة؛ ومن وُجهة نظر الجغرافي، هذا قطاع واحد فقط من السهول المرويّة بنهرَيْ (الاندُوسْ) و(الغنْجيزْ)، وهو حزام عريض من الأراضي المنخفضة المرويّة إضافة لذلك بالأمطار، وتلُفُّ شمال شبه القارة الهندية؛ من الممكن ـ أو كان من الممكن قبل أحداث ١٩٤٧ التي قطعت المواصلات ـ السفر بدون توقف، بالقطار من كراتشي عبر (دِلْهي) إلى (كلكُوتا) على بُعْد ألف وسبعمئة ميل (١٧٠٠) دون ملاحظة أيّ هضبة على الطريق. ومع ذلك فهناك تَنَوُّع موجود إذا نظر الإنسان بتمعّن: فمثلاً عندما تذهب من (كوجرات) إلى (كراتشي) ترى ليس فقط التغيير البسيط في مستوى الأرض والمزروعات وألبسة الناس بل ترى التناقض الواضح في أنّك تتجهُ من الداخل نحو الشواطئ ومع ذلك يزيد جفاف المناخ تدريجيًّا بدل أن يكون العكس؛ والقسم الأعلى من البنجاب في الجناح الغربي لباكستان يحظى بكميّةٍ غير قليلة من الأمطار متوسّطها السنوي في سفوح (همْلايا) هو ٣٥ بوصة وتأتي في موسمين الأقصر منهما يبدأ بعد منتصف الشتاء من المنخفضات الجويّة الغربية التي تأتي من البحر الأبيض المتوسط عبر أفغانستان وإيران، والأطول منهما في تموز ـ يوليو ـ وآب ـ أغسطس ـ عبر الرياح الساخنة (للمونُسُونْ Monsoon) ـ وهو موسم المطر ـ من المحيط الهندي عندما تصطدم تيارات في آخر الحدود الشمالية بسُفوح (همْلايا) بين (كاتُوَا) و(ناثياغَالي). بالإضافة لذلك يحظى غربُ البنجابْ بكميّات هائلة من المياه، كذلك السنْد أيضاً ولو بدرجة أقل، من الأنهار

الكبيرة التي تحمل مياه الثلوج الذائبة على قِمم (هملايا) و(كَرَاكُورامْ).

ونتيجة هذه الوفرة في المياه من المصدرين السالفين ـ من السماء ومن الأرض ـ وبِسبب نظام الريّ الواسع من مياه الأنهار، الذي بدأ في العهد الاستعماري البريطاني ثم وَسّعه الباكستانيّون يلحظ المسافر في القطار من حدود المرتفعات المِلْحيّة حتّى محافظة (رحيم يارخان) أو محافظة (بهاولْبُورْ) الخُصوبة الرائعة للأرض الزراعية.

وبعد ذلك يلحظ المسافر تدريجيًّا القفار الرمليّة التي تتخلّلها هنا وهناك بعضُ آجام (الأكاسْيا) أو بعض الواحات الصغيرة التي تعيش على الماء الذي يحمله القطار لها من نهر (الإندوس) حول مدينة (سَكّار) و(كُوْتْرِي)، فبعد هاتين المدينتين تتصل القفار الرملية بصحراءي (ثَرْ) و(راجِسْتانْ) اللتين تمتدّان عبر حدود الهند. ونجد في قضائي (بَهَاوَلبُور) و(خَيْربُورْ) وفي أجزاء من السنْد (الربع الخالي) الذي لا يختلف عن قِفار (النوبة) وصحارى ليبيا في شمال إفريقيا. وكما يعتمد أهل مصر والسودان في معيشتهم على نهر النيل فقط كذلك تعتمد هذه المناطق الباكستانية على نهر (الإندوس). وفي المناطق الممتدة من جنوب مدينة (مُوْلْتان) إلى البحر في الجنوب والمسافة (٤٥٠) ميلاً لا تزيد كميّة المتوسط السنوي للأمطار عن (٧) بوصات، وحتّى هذه الكميّة ليست مَكْفولَةً دائماً بانتظام فقد تهْطُلُ فجأةً في أي وقتٍ من أوقات السنة بكميّاتٍ كبيرة كالطوفان لِتَضِيعَ بعد ذلك بسرعة إمّا في الأخاديد أو في التّبخُّر من شدّة أشعّة الشمس. واستحالة اعتماد الزراعة على مثل هذا المناخ، ما عدا اعتمادها على ضفاف النهر والآبار، معروف مُدوّن في سجلاّت مكاتب الأرصاد الجويّة في (كراتشي). ففي سجلات سنوات متتاليةٍ أربع كانت كمية الأمطار في المدينة سنويًّا كالتالي: ٧,٠ بوصة، ٤و٩ بوصة، ٢٠,٨ بوصة، و٧ بوصات هطلت بصورة رئيسة فجأةً خلال زوابع حدثت خارج موسم الأمطار.

كراتشي مَعْلَمٌ بارز كائن بين قفار رمليّة من جهة وخِلْجان مِلْحيّة محفوفة بأشجار (المَنْغْرُوف) الاستوائية التي تَبْعَجُ الشاطئ من الجهة الأخرى؛ وهي إحدى أكبر التجمّعات الحضرية الاثنتي عشرة في آسيا ومعروفة عالميًّا كَمَرْفَإٍ ومطار مدني وتعداد سكانها يفوق المليونين من البشر إلا أنها ليست ـ الآن ـ عاصمة لأي شيء، فالعاصمة الفدرالية ـ الاتحادية ـ انتقلت إلى (رَاوِلْبِنْدِي) وإسلام آباد المجاورة لها عام ١٩٦٠م، ولم تبْقَ (كراتْشِي) عاصمة لإقليم السِنْد منذ عام ١٩٥٥م، وهي تاريخيًّا حديثة العهد بينما عاصمة

باكستان الغربية (لاهور) وعاصمة باكستان الشرقية (داكا) هما مدينتان غنيَّتان بالآثار والأبْنية التقليدية القديمة بخاصة في (لاهور)، وليس هناك أعْرَق من الأخيرة في شبه القارة الهندية إلا مدينة دلْهي؛ ولا تستطيع (كراتشي) ادّعاء أي شيءٍ من ذلك فلقد كانت حتى أواخر القرن الثامن عشر قرية صغيرة لصيد الأسماك؛ ولكن بدأ نُمُوُّها منذ ذلك الحين واستمر باطّراد إذْ جاءتْ المبادرة من النشاط التجاري البريطاني بعدما احتل (نابيير - Napier) السند في الأربعينات من القرن الماضي، ثم حدث الطلب الكبير للأقطان من داخل شبه القارّة، إبّان الحرب الأهلية الأميركية، ثم الانتهاء من بناء الخط الحديدي من الشمال الغربي عام ١٩٣٢؛ وآخر وأكبر عامل في نُمُوِّ كراتشي هجرة المحرومين المسلمين من الهند إليها بأعداد هائلة بعد التقسيم عام ١٩٤٧.

وقبل عام ١٩٥٩م عندما اتخذ نظام الرئيس أيوب خان الخطوة الحاسمة، لم تكن (كراتشي) العاصمة الفدرالية لباكستان شيئاً يُعْتَدُّ به - (يرفع الرأس) - كثيراً، وكان الأجانب القادمون إليها يأخذون منها فكره خاطئة عن باكستان، فحالة المهاجرين التعيسة لم تكن تعكس صورة حسنة إذ كانوا يتكثفون في أكواخ وأكشاكٍ على الأرصفة دون شروط صحيّة مناسبة. وكان يبدو أن المشكلة أكبر من قدرات السياسيين؛ لقد كانت فعلاً هائلة؛ ولقد أظهرت الإحصاءات أنه خلال الثلاثة عشر عاماً ما بين ١٩٤٦ و١٩٥٩ زاد عدد سكانها أربعة أضعاف أصله.

أما بالوشسْتان بالمقابل فعدد سُكانها قليل جدًّا وتقع في شمال وغربِ كراتشي، ومساحتها تكاد توازي مساحة إيطاليا؛ إلا أن سكانها لا يتعدّون مليوناً ومئة ألف ١,١٥٠,٠٠٠، أي نصف سكان (كراتشي) تقريباً، وهكذا فكثافتها السكانية هي ١١/ في الميل المربّع. وباستثناء حزامها الضيق على الشاطئ في (مَكْرَانْ) والسهل الصغير ذو الحر القاتل في الصيف في مدينة (سِبِيّ) - ومن المنطق أن يكونا في إقليم السند وليس بالُوشِسْتان - فيتألّفُ إقليم بالوشسْتان من هضبات صخريّة قليلة المياه يصل ارتفاعها عن سطح البحر ٥٠٠٠ آلاف قدم وفيها سلسلة جبال يصل ارتفاعها في بعض قممها ١١,٠٠٠ قدم تقريباً؛ فهي في الواقع آخر امْتداد في أقصى الشرق لِسِلْسِلةِ الهضبات المرتفعة في بلاد فارس. ويفصِلُ بالوشِسْتان عن وادي نهر (الإندوس) حواجز طبيعية واضِحة، فسلسلة جبال سليمان تظهر كسيف معكوف حول كتفها في الشمال، وعلى أطرافها في الجنوب سلْسلة

مرتفعات (كِرْثارْ) الكلسية؛ وما بين السلسلتين فجوة (سِبّي) ـ (بولان) إذ يخترقها الخط الحديدي مُتعرِّجاً إلى (كْويتّا أكبر مدن الإقليم وعاصمته المشهورة بِكلية الأركان فيها.. وبالزلازل المتكرِّرة (في عام ١٩٣٥م مات فيها ثلاثون ألفاً بسبب الزلازل).

والمسافة من رأس الفجوة في بولان صعوداً حتّى شامان القريبة من حدود أفغانستان هي سبْعون ميلاً فقط (٧٠) إذْ تضيق التلال بصورةٍ واضحة في هذه النقطة؛ وهذا التقلُّص والانقباض في مساحة الهضاب يقسم تقريباً بالوشِسْتان إلى قسمين: في الجنوب مستطيل واسع وفي الشمال مثلث أصغر... كالإسفين. ويختلف القسمان الواحد عن الآخر تماماً في طبيعة الأرض والسكان، فمَعَ أنّ القسمين يتشكّلان من أرضٍ مُسَطَّحةٍ تتخلَّلها هضاب مختلطة واسعة عارية ملونة زيتونية أو سوداء أو خمرية أو صفراء، فما نشاهده هناك كأنّما هو من نَسْج الأحلام.

يصف (هُولْدِش) هذه المناظر بقوله: «أعمدة هائلة مُتَوجّه الرأس على قواعد متوازنة بنظام عجيب على سفوح الهضاب مع طبقات متتالية واضحة محدّدة مُتحدّية... ووراءها الشاطئ النُحاسي الذي يغسله البحر المتوهج».

وأعْلى مرتفعات المستطيل، وهي قرب (كَالاَتْ) في الشمال، كأنّما هي مِحْورُ مرتكز هذه التركيبة الجبليّة المتماسكة القائمة. وما بين هذه القمم المُدَبّبة والشاطئ تختبئ أحياناً ممرّات ضيقة تضم أجزاء صغيرة من الأرض الخَصْبة المزروعة نخيلاً، وعلى «مصاطب» سهولها تتجمَّعُ محاصيل الحبوب. ومن مجاري الأنهار، التي تجفّ أحياناً، هناك واحد فقط هو (المُولا) الذي يرفد نهر (الإندوس)، وهو يندفع خلال سلسلة هضاب (كِرْثارْ) في ممرٍّ ضيِّقٍ مُثير، كان فيما مضى طريقاً مهمًّا للتجارة ومعبراً لِمُشاة الجيوش. أمّا الأنهار الأخرى فتجري إمّا مباشرة لتصبّ في بحر العرب أو تتيهُ ضائعة في الشمال الغربي لتنتهي في البحيرات الصغيرة والمستنقعات المشمَّسة حيث تتبخّر مياهها باستمرار، أو في منخفضات (مُشْكِلْ) على حدود إيران. وفي هذه المناطق البعيدة يمكن مشاهدة البراكين القديمة الغريبة في هضاب (شاغايْ) وصحراء (كاران) حيث الرمال المتماوِجة بالرياح.

مناخ إقليم بالوشِسْتان قارِيّ رغم قرب جنوبه من البحر، فهو يتراوح بين البرودة الشديدة والحرارة الشديدة ويمكن أن تكون الرياح قويّة جدًّا؛ وبعكس سهول (الإندوس) و(الغنْجزْ) لا تحْمِي سلسلة جبال هِملايا بالوشِستان من الرياح الآتية من الهضَبات

والسهول الواسعة في أواسط آسيا ومن ثُلوج روسيا الآسيوية والتِبتْ والصين. ففي الشمال الشرقي للإقليم بخاصّة، وهو على شكل إسفين، برد الشتاء قارِس، رغم أشِعّةِ الشمس الساطعة، ويتغلغلُ في العظمِ بشكل لا يمكن لِمن لم يتعرضْ له أن يتصوَّرَه، وقد تهْبِطُ درجة الحرارة قبل الفجر عدّة درجات تحت الصفر.

ورغم وجود بعض الجبال العالية في تلك المنطقة أكثر ممَّا في الجنوب، ومنها (تختُ سليمان) و(زرْغُونْ) إذْ يصل ارتفاعها اثني عشر ألف قدم (١٢٠٠٠)، فوضع تلك المنطقة الجغرافي أقلّ تطرّفاً. وفي (زُوْبْ) وهي المدينة الأكثر شهرة في تلك المنطقة لأنها على طريق استراتيجية ويمرُّ بها الخطّ الحديدي حتّى قلعة (سانْدِيمَانْ)، أقول إنها منطقة صخرية مرتفعة تتخلّلها الآجام وتميل تدريجيًّا نحو جدار جبلي، فوقه شاشة صغيرة من فلذات الصخور وفي أسْفَله يستقيم سطْحُه الواسع البُنّي المنحوت بالرياح، وفي الأعلى شقوق مجموعات متناثرة من شجر العرْعَرْ الداكن الخضرة، والزيتون البرّي والصنوبر. ونلحظ على بعدٍ وراءه، سلسلة جبالٍ ذات منحدرات هائلة أكثر قممها مكسوّة بالثلج في فَصْليْ الشتاء والربيع. ومجموع هذه الصورة يعْكِسُ فراغاً واسعاً تملؤه الرياح.

ولكن عندما تنتقل بالسيّارة من قلعة (سانْدِيمانْ) عبر (سَامْبَازَا) ـ وربما تحتاج لحرس معك، لأن الحدود الأفغانية قريبة وقد يكون هناك كمين ـ يزول إيحاء الصورة السابقة فبعد أن تقطع ساقية (غُومَالْ) التي تجري من اليسار، تبْدأ الطبيعة بالتقلّص وتصبح التضاريس شيئاً محدوداً مركّزاً في الجرف والركام الحجري. وتزول الصورة الأُفُقِيّة لبالوشِسْتان لتحلّ مَحَلَّها صورةٌ شاقولية وتمكن الرؤية البعيدة من النِقاط المرتفعة طبعاً، ولكن ينقص المنظر انحناءات السطوح فكلّ شيء يبدو مُتَلَّماً، إذْ نحن الآن في (وزيرسْتَانْ) أخطر المناطق القبلية في قلبِ أرَضِ الباثان الذين يتحدثون بلغة (البَشْتُو)... وليس فيها ذلك الجوّ المنعزل الحالم الكائن في جيوب بالوشِسْتان. فالبيئة واقعية عملية قاسية حادّةٌ كالسكّين.

وتركيبة الأرض الشاقولية هنا تمتد شمالاً أمامك، وقد يكون في تفاصيلها تنوُّعٌ كثير، وأحياناً وبصورة غير متوقّعة، ورغم الخشونة ترى المنظر جميلاً أخّاذاً، ففجأةً تنفتح الطبيعة على تجوّفات صغيرة جذّابة خضراء محصورة بين مرتفعات شاهقة ذات سُمرة صفراء، وحقول صغيرة حَسَنة الاستغلال وبساتين الفاكهة الجيدة وربّما بعض شجرات الأرز المُظِلّة؛ أو يبدو عن بُعْدٍ لَمَحاتٌ من قِمّة (سيكارامْ) المكسُوّة بالثلج في (صافيدْكوهْ)

على ارتفاع سِتّةَ عشر ألف قدم (١٦,٠٠٠). ولكن حتى في لحظات سعيدةٍ كهذه يبقى الإحساس الخاص بالفجائيّة الحادّة. وكل شيء أمامك على امتداد مئتين وخمسين ميلاً ـ بالطائرة ـ حتّى مناطق قبائل الباثان في (دِيرْ) و(سْوُاط) اللتين ذكرناهما في ابتداء هذا الفصل الوصْفيّ لجولةٍ في باكستان الغربية؛ امتدادات عبر ممرات مثيرة مشهورة تاريخيًّا مثل (تُوشي) و(نُرَّامْ) و(طيره) و(خَيْبر) و(باجور) و(مَالاَكانْدْ) كلها تندلقُ إلى اليسار عبر الحدود الدوليّة ـ أي خط (دورانْدْ ـ Durand) في أفغانستان، وتنحدِرُ يميناً لتشمل الوديان الواسعة الغنيّة الخصبة المكتظّة بالسكان في (بانو) و(كوهات) و(بيشاور) وكل واحدة منها محدودة بنصف دائرة من الهضاب الجميلة الشديد الانحدار ورغم أنك ربّما لم تلاحظ أنّ الوديان هذه تمْتَدُّ وراءك لأميالٍ وأميال أيضاً لأن المثلث الشمالي الشرقي لبالوشِسْتان تحُدُّه (كْويتاَ)، وكلّ سكانه ـ حيثما هو مسكون ـ هم في الغالبية من الباثان؛ وهذا هو العامل الثاني الإثْنِيّ ـ العِرقيّ ـ بدل العامل الطبيعي المشْهدي الذي يُميِّزُ المثلث الشمالي عن المسْتطيل الجنوبي الأكبر وغالبيّةُ سكانه من غير الباثان لغةً وعِرقاً.